بسم الله الرحمن الرحيم

التطبيقات اللغوية/المحاكاة الصَّوتيَّة

كليَّة التربية للعلوم الإنسانية- قسم اللغة العربية- المرحلة الرَّابعة

أُستاذ المادة: أ.د. ميثاق حسن عبدالواحد

للصَّوت وظيفة مركزيَّة في بناء نظام التَّواصل العربي, فهو الأساس الذي تنبني عليه المستويات اللغويَّة الأخرى, وتستمدُّ منه مقوِّمات وجودها.. ويمكن أنْ نعرِّف الصَّوت بأبسط صورة بأنَّه "الصُّورة المنطوقة/المسموعة للحرف" , ليكون الحرف " الصُّورة المكتوبة/المرسومة للصوت " .

يؤدِّي الصَّوت في بعض الألفاظ مضامين دلاليَّة مضافة على المضمون الأساسي المركزي المتمثل بالدلالة المعجميَّة, فيكون حضوره فاعلاً في تعزيز ذلك المعنى وإغنائه بما تجود به قيمته الصَّوتية المستمدة من صفاته المخارجيَّة والكيفيَّة التي ينتج في ضوئها. وهذا التَّعزيز والإغناء هو ما نطلق عليه المحاكاة أو المساوقة الصَّوتية, وهما صيغتان مشتقتان للدلالة على اسم مفعول من حاكى و ساوق على التوالي, وحاكى بمعنى شابَهَ وماثَلَ, وساوَقَ بمعنى جانَسَ وقارَبَ. والمحاكاة أو المساوقة هي: أنْ يُوحي صوت اللفظ وجَرَسُه بمعناه. وهي من الظواهر اللغوية التي أشار إليها علماء اللغة المتقدِّمون, بدءاً من سيبويه (ت180ه) في كتابه, فتحدث عن المصادر التي تجيء على مثال نُطقيٍّ واحد لتقارب معانيها كالنَّزوان والنَّقزان والقفزان, التي تتعلق جميعها بزعزعة البدن واهتزازه. وكذلك تناولها اللغوي البارز أبو الفتح عثمان بن جنِّي (ت392ه) في الخصائص, وأفرد لها باباً أسماه (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني), وذهب إلى أنَّ العرب قابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال, فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر, وأكّد أن العبارة كلما ازدادت بالمعنى شبهاً كانت أدلَّ عليه, وأشهد بالغرض فيه.

ولم يقتصر تناول هذا المبحث اللغوي على علماء العربية فقد تناوله علماء اللغة الغربيون أيضاً, واصطلحوا عليه بقيم عدة أهمها (الأونوماتوبيا) وتعني محاكاة الوضع اللغوي لمظاهر

الطبيعة. ولما كانت اللغة عبارة عن نظام علامي قادر على أنْ يعبِّر بنفسه عن نفسه, فكأنَّ الواضع عندما وضع الألفاظ بإزاء المعاني لم بضعها اعتباطاً, وإنَّما أخذ يتخيَّر لكل لفظ معناه الذي توحي به أصواته, فتعلو كفة هذا المعنى على ذاك وتفضُل. لقد عاشت العربية عُمرها تتفاعل مع مشخِّصات البيئة والطبيعة التي وُلدت فيها, وتزوِّد النَّاطقين بها ما يحتجاون إليه من المسمّيات, ومن هنا فإنَّ مبحث المحاكاة الصَّوتية لا يتعلق بالأصل الوضعي الاستعمالي بقدر تعلقه بالدلالات المكتسبة, وما يُضفيه استعمال الأصوات وإبداع تأليفها من ظلال وإيحاءات دلالية تناسب أصواتها الأحداث المعبَّر عنها, وتوحي بها إيحاءَ صفات الأصوات المؤلّفة لها. تضمَّنت اللغة العربية ومظهرها التواصلي الأسمى "القرآن الكريم" العديد من وسائل التعبير الفني التي تندرج ضمن أسس المحاكاة الصوتية ومظاهرها.

***مظاهر المحاكاة الصَّوتيَّة: هنالك العديد من مظاهر التشكل اللغوي التي يتجلى عندها أثر المحاكاة, ومنها:**

1/ التّكرار المقطعي: ويتمثل غالبا في الصيغ الفعلية التي تتكوَّن من مقطعين صوتيين متماثلين, نحو صيغة "دمدمم" في قوله تعالى: " فدمدمَ عليهم ربُّهم بذنبهم فسوَّاها" (الشمس:14) والدَّمدمة في معجم العرب الهلاك المتأصِّل, يُقال: دمدمتُ الشيء, إذا ألزقته بالأرض. وقيل: ناقة مدمومة, أي: ألبسَ الشحمُ جسمها. ودمدمت على الشيء, إذا ضيَّقتُ عليه. فالفعل دمدم رُباعي على زنة (فعْلل) , تكرَّر فيه المقطع الصوتي المؤلّف من صوت الدال الشديد المجهور المفخَّم جزئياً, والميم المتوسِّط بين الشِّدة والرَّخاوة, فعند نطق المقطع الأول تنتج نغمة صوتية, تنقفل لبرهة من الزمن؛ بفعل سكون الصوت الثاني, فينحبس الهواء المصاحب, فيتخذ التجويف الأنفي مسلكاً له محدثاً حالة من الدّوي والإيقاع الفخم ناجماً عن الذبذبات الرنينية المتتابعة, وعندما يتكرَّر المقطع تتكرَّر معه العملية الإنتاجية والخصائص المصاحبة لها مفصحة عن حالة من التناسب والتناغم والتشابه والتماثل بين الشكل الحدثي الرباعي المكرر والمضمون المتمثل بقوة الحدث المنطوي على إهلاك الكافرين المكذّبين وهيئة إطباق العذاب عليهم. ومثله قوله تعالى: "فكُبكِبوا فيها هم والغاوون" تصويراً لحال المعذبين في جهنَّم وهم يتهاوون فيها ويُكَبُّون كبَّاً فظيعاً من دون أنْ يُحسَبَ لهم أيَّ حساب,

كما يُكبُّ الماء ونحوه من السَّوائل. و "وأمّا عادٌ فأُهلكوا بريحٍ صرصَرٍ عاتية" , وكقول البُحتري مصوِّراً حال الذئب الذي التقاه:

يُقضقِضُ عصلاً في أسرَّتها الرَّدى كقضقضة المقرور أرعده البرد

وقضقضة المقرور تعبيراً عن ارتعاد الفرائص واضطرار العظام والأضلاع من شدَّة البرد, وهو ما تشعُّ به أصوات اللفظ من الظلال الإيحائيَّة المضافة. ومثل ذلك قول الشاعر بدر شاكر السَّيَّاب: وكركرة الطّفل في يوم عيد..

فبناء المصدر (كركرة) على التكرار المقطعي خلق مستوى نغميَّاً موسيقيَّاً, ناسب المضمون المترتب عليه وأوحى بمعناه المتمثل بالضَّحك الشديد المتواصل.

2/ تضعيف الصَّوت: وهذا مسلكٌ آخرُ يؤدي إلى خلق حالة من المحاكاة والمساوقة الصوتية, ويُوحي بظلال معنوية مضافة, كقوله تعالى: "وكُلاً ضربنا له الأمثال وكُلاً تبَّرنا تتبيرا" (الفرقان:39) وتكاد تُجمع القراءات المعجمية لمعنى التتبير على أنَّه الإهلاك بالاستئصال, والتكسير, والتفتيت, والتَّدمير. وهذا متأتٍ من اتِّساق أصوات اللفظ على وفق هيئة مخصوصة ولاسيّما تضعيف صوت الباء بخصائصه من الجهر والانفجار, الذي فعل فعله في جعل القيمة الدلالية للفظ بوصفه ملفوظا متشكلاً في موضوع العذاب تحاكي دلالته اللغوية الأصلية على المعاني المذكورة أعلاه, وإنْ دلَّ هذا على شيء فإنَّه يدلُّ على دور ظاهرة التَّضعيف الصَّوتي في تعزيز العلاقة بين دلالات اللفظ المعجمية والصوتية والسياقية.

ونظير ذلك قوله تعالى: "وقطَّعناهم في الأرض أمماً" المنبيء تضعيف صوت الطاء المفخم المطبق المستعلي فيه عن معاني الاستعلاء والقصدية والعناية في التفريق, وكذلك قوله تعالى: "ومزَّقناهم كلَّ مُمزَّق" الموحية أصوات بنيتي التمزيق فيه بظلال ما حصل على أرض الواقع من معاني الشدة والغلظة والقوة في التفريق والتخريق والتفتيت..إلخ

3/ الزيادة في المبنى تؤدي أحيانا إلى زيادة في المعنى, كزيادة صوت الطاء في بنية فعل الصُّراخ في قوله تعالى: "وهم يصْطرخون فيها" (فاطر:37) فالصُّراخ صوتٌ رفيعٌ عالٍ, والصَّرخة: الصَّيحة الشّديدة عند الفزع أو المصيبة, يُقال: صرخ, يصرُخ, صُراخاً.. وزيادة

أنتجت صيغة الاصطراخ التي حصل فيها إبدال صوتي بين صوت التاء المقتضى بنائياً وصوت الطاء المتشكل في الواقع الاستعمالي, فتوالي صوتي الصاد والطاء المفخَّمين المطبَقين, وإتباعهما بصوتي الراء والخاء, والتَّرنُّم بصوت الواو المديَّة ولّدت نغمة موسيقيَّة عالية وصاخبة, حاكت الصَّدى الدلالي الماثل على أرض الواقع, راسماً في ذهن المتلقي صورة متخيَّلة تصف قوة الصُّراخ وشدة الصِّياح المنبعث من حناجر أولئك المعذّبين, مصوِّرة حال العذاب الذي هم فيه ووطأة الموقف الذي يقفون فيه, وشدة الوضع النفسي الضاغط الذي هم عليه, حتى لكأنَّك تسمعهم يتصارخون بقوة طلباً للإغاثة والمساعدة, وتستخلص حال الإهمال وعدم العناية الذي يُواجَهون به. ومن ذلك أيضاً قول الشاعر:

ألا اصطبار لسلمى أم لها جلدٌ إذا أُلاقي الذي لاقاه أمثالي

فالشاعر في معرض حضّ سلمى المخاطبة على التَّحلي بمقدارٍ من الجلد والتَّحمل يفوق مقدار الصَّبر المتعارف عليه, فليس المطلوب منها أنْ تصبر لأجل حُبِّه فحسب بل عليها أنْ تصطبر لأجله اصطباراً شديداً, يجتاز في مداه المضموني مديات الصَّبر العادي المتعارف عليه. ونظير ذلك قول الشاعر:

لقد تصبَّرتُ حتّى لاتَ مصْطَبَرِ فالآن أُقحِمُ حتّى لاتَ مقتَحَمِ

فلم يعد هناك مجالٌ للصبر والتَّحمُّل, فقد بلغ في جلده وتحمُّله الغاية والنِّهاية.